كلام جاهليّ او مخضرم او اسلاميّ او مولَّد فليتفضَّل بذكر الموضع الذي عثر عليها فيهِ فاقابلهُ بالشكر واعترف لهُ بالفضل والجميل

هذا ما اقتضى ذكرهُ ما قصدت من نشر (الفصاحة وكتَّاب العصر) واما توسيع اللغة فقد عقدت لهُ فصلاً سأذكرهُ في مجلتكم الجليلة الشأن ان شاء الله

بيروت سعيد الخوري الشرتوني

واضع علم النحو

لماذا سُمّي النحو نحواً وما علاقة هذا الاسم بالمسمّى وهل يُعقَل ان احداً يضع علماً ويسميهِ اسماً لا يدل عليهِ بوجهٍ من الوجوه ولا ملابسة لهُ بهِ . قال ابن ميده صاحب المحكم والمخصص في اللغة « أخذ النحو من قولهم انحاهُ اذا قصدهُ انما هو انحاء سمت كلام العرب في تصرُّفهِ من اعراب وغيرهِ كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والاضافة والنسب وغير ذلك ليلحق بهِ من ليس من اهل اللغة العربية باهلها في الفصاحة .. وهو في الاصل مصدر شائع اي نحوت نحواً كقولك قصدت قصداً ثم خص بهِ انتحاء هذا القبيل من العلم » نقل ذلك الزبيدي في شرح القاموس ثم قال « قال شيخنا واستظهر هذا الوجه كثير من النحاة . وقيل هو من الجهة لانهُ جهة من العلوم وقيل لقول علي رضي الله تعالى عنهُ بعد ما علَّم ابا الاسود الاسم والفعل وابوابًا من العربية انحُ هذا النحو . وقيل غير ذلك مما هو في اوائل مصنفات النحو . وفي المحكم بلغنا ان ابا الاسود وضع وجوه العربية وقال للناس انحوا نحوهُ فسمي نحواً » . انتهى

وتوفي ابن ميده في اواسط القرن الخامس (سنة ٤٥٨) للهجرة وقد سبقهُ الى ذكر هذه التعاليل ابن النديم صاحب كتاب الفهرست في اواخر القرن الرابع فما ذكراهُ متأخر عن زمن وضعهِ مئتي سنة الى ثلثمئة سنة ولا غرابة فيهِ لان علماء العربية حاولوا تعليل كل شيء مثل علماء الطبيعة فما لم يجدوا لهُ علة معقولة تحلوا لهُ علة ولو غير معقولة

ولقد تكررت هذه التعاليل على سمعنا مراراً منذ اربعين سنة الى الآن ونحن لا نلتفت الى تحقيقها او تزييفها لاننا لم نشتغل بهذا الموضوع ولكن جاءتنا مقالة وجيزة من الاستاذ الشرتوني قبيل كتابة هذه السطور موضوعها ايضاح لنوي قال فيها انهُ « اذا تصورف اللفظ بمعنى انصرف اليهِ سواء كان هناك ملابسات قوية او ضعيفة او لم تكن ملابسة بتة وذلك

كوضعهم لفظة النحو للعلم الذي تعرف بأصوله صحة التركيب واحوال اواخر المركبات » . فلما قرأنا هذه العبارة ونحن نمثل المقالة للطبع خطرت على بالنا التعاليل التي قرأناها في صبانا لتسمية هذا العلم بالنحو وقلنا لا يعقل ان يكون القوم قد سموا علمًا باسم لا علاقة لهُ به على الاطلاق وتحال شرعنا نبحث عن اصل هذه الكلمة ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى اهتدينا الى ما نظنهُ اصلها الحقيقي

قال ابن منظور صاحب لسان العرب في مادة نحا قال الازهري « ثبت عن اهل يونان في ما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم وانتهم انهم يسمون علم الالفاظ والعناية بالبحث عنهُ نحواً و يقولون كان فلان من النحويين ولذلك سمي يوحنا الاسكندراني يحيى النحوي للذي كان حصل لهُ من المعرفة بلغة اليونانيين »

فما نقلهُ ابن منظور عن الازهري يدل على ان اصل هذه الكلمة يوناني وان لهُ علاقة باسم يوحنا الاسكندراني النحوي الذي يقال ان عمرو ابن العاص لقيهُ في الاسكندرية في زمن الفتح وكلمهُ في شأن مكتبتها كما هو مذكور في كتب التاريخ

وقد اشتهر في تاريخ مصر في زمن الفتح رجلان باسم يوحنا الاول يوحنا فيلبونُس او الفراماطيقي والثاني يوحنا النحوي او النحوي نسبة الى نحو او نحو او نقو مدينة قرب منوف في مديرية المنوفية من اعمال القطر المصري . اما الاول فكان من الفلاسفة المشائين والمرجح انهُ مات قبل الفتح ولكن ابن العبري يقول انهُ بقي حيًّا الى زمن الفتح . واما الثاني فكان اسقفًا قبطيًّا وقت زمن الفتح والَّف تاريخًا جامعًا بالقبطية في اواخر القرن السابع للميلاد اي بعد الفتح بنحو خمسين سنة وقد ترجم تاريخهُ الى العربية ومنها الى الحبشيَّة ولا يوجد منهُ الآن الاَّ الترجمة الحبشيَّة . وكان مؤرخو العرب يعرفون هذا التاريخ كما يجيء وقد نقلوا عنهُ كثيراً والظاهر انهُ التبس عليهم اسم يوحنا الفراماطيقي باسم يوحنا النحوي فظنوهما اسمين لمسمًّى واحد فاستنتجوا ان كلمة نحو مرادفة لكلمة غراماطيقي ومن ثم يفهم مراد ابن منظور في قولهِ « ان اليونانيين يسمون علم الالفاظ والعناية بالبحث عنهُ نحواً ولذلك سمي يوحنا الاسكندراني يحيى النحوي » اي يوحنا النحوي هذا . ومما يدلُّ على صحة استنتاجنا ما ذكرهُ صاحب الفهرست في ترجمة يوحنا النحوي او يحيى النحوي قال « كان يحيى تلميذ ساوارس وكان اسقفًا في بعض الكنائس بمصر و يعتقد مذهب النصارى اليعقوبية ثم رجع عما يعتقدهُ النصارى في التثليث فاجتمعت الاساقفة وتلمذوهُ فغلبهم واستعطفتهُ وانستهُ وسألتهُ الرجوع عما هو عليهِ وترك اظهارهِ فاقام على ما كان عليهِ وابى ان يرجع فاسقطوهُ وعاش الى ان فتحت مصر

على يدي عمرو بن العاص فدخل اليهِ واكرمهُ ورأى لهُ موضعاً وفسر كتب ارسطاطاليس ... وذكر في المقالة الرابعة من تفسيرهِ لكتاب السماع الطبيعي في الكلام على الزمان مثالاً قال فيهِ مثل سنتنا هذه وهي سنة ثلث واربعين وثلثمائة لفلطيانوس القبطي فهذا يدل على ان بيننا وبين يحيى النحوي ثلثمائة سنة ونيف »

لكن يوحنا النحوي اي الغراماطيقي لم يكن اسقفاً ويظهر مما نقلهُ عنهُ صاحب كتاب الفهرست انهُ كان فيلسوفاً فقد قال في الكلام على القاطيغوریاس (اي المقولات) « فسمن شرحهُ وفسرهُ فرفوريوس واسطفن الاسكندراني ويوحنا النحوي » ثم قال انهُ كان قبل الفتح بنحو ٦٠ سنة . وقد حقق اكثر الباحثين الآن انهُ مات قبل الفتح بثلاثين سنة او اكثر . ثم قال انهُ مدح ديسقوريوس في كتابهِ « في التاريخ » واشار الى تاريخهِ غير مرة . ولكن يوحنا صاحب التاريخ هو اسقف نحو وكانت ولادتهُ في زمن الفتح كما تقدم فهو غير الاول

ويظهر لنا انهُ لما اخذ العرب يدونون كتب التاريخ وغيرها في القرن الثاني التبس عليهم اسم يوحنا الغراماطيقي باسم يوحنا النحوي او النحوي فحسبوها اسمين لمسمًّى واحد وان كلمة نحو مرادفة لكلمة غراماطيق ولعلهم لم يعرفوا يوحنا الغراماطيقي بهذا الاسم اولاً بل عرفوهُ باسم الحريص كما ذكر المسعودي (وباليونانية فيلبونس اي محب العمل) ثم عرفوا انهُ كان يشتغل بقواعد اللغة اليونانية بعد ان شاع بينهم اسم يوحنا النحوي اسقف نحو بسبب تاريخهِ فحسبوا ان كلمة نحو او نحو يراد بها عند اليونان الاشتغال بقواعد اللغة فاقتبسوها . وكان يسهل عليهم تسمية العلوم باسمائها اليونانية كما سموا علم الحساب بالارثماطيقي وعلم رسم الارض بالجغرافيا وابقوا اكثر المصطلحات العلمية على لفظها اليوناني فقالوا قاطيغوریاس (اي المقولات) وانالوطيقا اي تحليل القياس وسوفسطيقا اي المغالطة وريطوريقا اي الخطابة وبوطيقا اي الشعر الخ

اما ابدال كلمة يوحنا بكلمة يحيى فسببهُ ان كلمة يوحنا كانت تكتب بالحروف هكذا يحنا من غير نقط لان الكتابة العربية بقيت الى اواسط القرن الثالث من غير نقط كما يظهر من الرقوق القديمة التي كشفت حديثاً في خرائب القطر المصري فلما وضعت النقط لتمييز بين الحروف نقطت هذه الكلمة يحيا بالياء في الغالب بدلاً من ان تنقط بالنون وقد رأيناها في نسخ قديمة من الكتب الدينية المسيحية منقوطة يحنا وفي نسخ اقدم منها من غير نقط

وقياساً على ذلك كانت كلمة نحو تكتب من غير نقط ثم نقطت النون ولم تنقط الحاء او كانت الحاء تلفظ مرخمة كالخاء اما اليونان فكانوا يكتبونها بالكاف او بالقاف وهذا

شأنهم في كلة فرعون نخو فان هيرودوتس اليوناني كتبها Nexos نقوس ومنيثو الكاهن المصري كتبها Neyôs نخو . هذا من حيث تسمية العلم بعلم النحو

واول مَن وضع علم النحو او قواعد علم اللغة وتركيب الالفاظ في ما يُعلم اليونان وانظاهر انهم وضعوها لكي يسهلوا تعلُّم لغتهم على الطلبة من الرومانيين . والمعروف ان ديونيسيوس تراكس الف غراماطيقاً في زمن بمبيوس قبل المسيح بنحو سبعين سنة فكان اساس كل الاجروميات التي أُلفت بعده . وقد حدَّد هذا العلم بانهُ معرفة لغة العلماء في اقسامها الستة اي علم اللفظ والشكل (او الاعراب) وعلم تفسير الكلام المجازي وعلم التعريف او التحديد وعلم الاشتقاق وعلم التصريف وعلم النقد وعلى هذا المبدإ أُلفت الاجروميات في رومية والاسكندرية ووصلت الى السريان فالعرب . ويظهر لنا ان كلة اجرومية بالعربية هي نفس كلة اغراما اليونانية او اغراماريا اللاتينية ثم ان الزبيدي قال في تاج العروس ان مؤلف الاجرومية هو ابن آجروم نسبت اليهِ ولكن المأثور ان مؤلفها هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن داود الصنهاجي ولا ذكر لاجروم في ترجمتهِ

ولما اعتنق العجم الاسلام وعُنوا بتعلُّم العربية اما تزلفاً الى خلفاء العرب وامرائهم واما حرصاً على لغة الدين الذي دانوا بهِ واما اشتغالاً بشيءٍ منهُ كسب لم اهتموا بجمع شواردها ووضع القواعد لها جارين مجرى اليونان والسريان فوضع سيبويه كتابهُ المشهور في اواخر القرن الثاني من الهجرة . والمطلع عليهِ يرى لاول وهلة انهُ هو والخليل ابن احمد الفراهيدي ويونس بن حبيب النحوي كانوا يشتغلون بجمع الشوارد ووضع القواعد وان اشتغالهم كان ابتدائياً غير مبني على اشتغال الناس قبلهم الأ في ما ندر هذا اذا استثنينا الكلات الاصطلاحية كالفاعل والمفعول والنكرة والمعرفة والمنصرف وغير المنصرف الخ فان اكثر المصطلحات النحوية كان معروفاً حينئذٍ ولكن يصعب علينا أن نصدق انها وضعت وضعاً والمرجَّح عندنا انها ترجمت ترجمة كما فعل الاقدمون في ترجمة المصطلحات الطبية وكما يفعل المترجمون في هذا العصر في ترجمة المصطلحات الكيماوية . وهذا بحث جليل نودُّ أن نتفرَّغ لهُ في فرصة أُخرى واذا كان كتاب سيبويه الذي وصل الينا هو نفس الكتاب الذي وضعهُ سيبويه ولم يُدخل فيهِ شيء او اذا كان المدخل فيهِ يساوي نصفهُ فالنصف الباقي يشهد لهُ بالتبريز على كل من عُني بجمع قواعد لغة من اللغات فالتيمسيكا وفارس اللذين عنيا بجمع اللغة المصرية العامية لم يصلا الى نصف ما وصل اليهِ سيبويه مع كثرة وسائلهما بالنسبة الى وسائلهِ ومع وجود امثلة كثيرة امامهما يحتذيانها في وضع قواعد اللغة

وقد رأينا في كتاب الفهرست بعد كتابة ما تقدَّم ان صاحبهُ قرأ بخط ابي العباس ثعلب انهُ اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان واربعون انساناً منهم سيبويه . وولد ثعلب سنة ٢٠٠ للهجرة واخذ ينظر في العربية والشعر وعمرهُ اثنتاعشرة سنة فهو ثبت في ما يرويهِ عن سيبويه لقرب عهدهِ بهِ

وهاك مثالاً من كتاب سيبويه قال « سألت الخليل فقلت لهُ كيف تقول مررت باليعملِ منك من قولهِ مررت باعيمٍ منك فقال مررت باعيمٍ منك لان ذا موضع تنوين ألاَ ترى انك تقول مررت بخيرٍ منك وليس افعلُ منك بأثقل من افعلَ صفةً واما يونس فكان ينظر الى كل شيءٍ من هذا اذا كان معرفةً كيف حال نظيرهِ من غير المثل معرفةً فاذا كانَ لا ينصرف لم يصرف يقول هذا جواري قد جاء ومررت بجواريَ قبلُ . وقال الخليل هذا خطأ لو كان من شأنهم ان يقولوا هذا في موضع الجر لكانوا خلقاء ان يلزموهُ الرفع والجر اذ صار عندهم بمنزلة غير المثل في موضع الجر ولكانوا خلقاء ان ينصبوها في النكرة اذا كانت في موضع الجر فيقولوا مررت بجواريَ قبلُ لان ترك التنوين في ذا الاسم في المعرفة والنكرة على حال واحدة . ويقول يونس للمرأة تسمَّى بقاضٍ مررت بقاضيَ قبلُ ومررت باعيمٍ منك . فقال الخليل لو قالوا هذا لكانوا خلقاء ان يلزموها الجر والرفع كما قالوا حين اضطروا في الشعر فاجروهُ على الاصل قال الشاعر المذلي

أبيت على معاريَ واضحات بهنَّ ملوَّبٌ كلم العباطِ

وقال الفرزدق

فلو كان عبدالله مولى هجوتهُ ولكن عبد الله مولى مواليَ

وانشدني اعرابي من بني كليب لجرير

فيوماً يوافيني الهوى غير ماضيٍ ويوماً ترى منهنَّ غولاً تغوَّلُ

وخلاصة ما يتقدَّم اولاً ان اليونانيين وضعوا علم النحو (الغراماطيق) قبل الهجرة بنحو سبع مئة سنة فاقتبسهُ منهم الامم المجاورة لهم ولا بد من ان يكون عملهُ قد اتصل بالعرب بُعيد الفتح إما من السريان او من الروم او من القبط فنحجوا هم او موالهم على منوالهِ بالترجمة او بالوضع . وثانياً انهُ لا يكاد يعتقل ان يسمي العرب هذا العلم اسماً لا علاقة لهُ بهِ مطلقاً ويرجح لنا ما نقلهُ ابن منظور عن الازهري ان العرب سموا هذا العلم نحواً وهم يحسبون ان هذا هو اسمهُ باليونانية خطأ وقع في خلطهم بين يوحنا الغراماطيقي الفيلسوف المشائي ويوحنا النحوي او النحوي المؤرخ القبطي فان صح ترجيحنا هذا علم السبب الذي من اجلهِ سمي النحو نحواً